الفصل الثامن

هربرت سبنسر
(١٨٢٠-١٩٠٣م)

هربرت سبنسر

• ١- كومت وداروِن:

أدت فلسفة كانط إلى نتيجتين إحداهما كانت مقصودة وهي القضاء على طريقة التفكير التقليدي، والأخرى كانت غير مقصودة وهي توجيه ضربة قاضية للميتافيزيقا كلها. وقد كان القصد من وراء دراسة الميتافيزيقا هو محاولة الكشف عن طبيعة الحقيقة النهائية. لكن الجميع تيقن -وبعد استشارة الخبراء- أن من المستحيل على الإنسان أن يصل إلى الحقيقة بالخبرة والتجربة. وقد أدركوا أن الحقيقة مجرد معنى نسعى إليه ولا نعرفه.

أوجست كومت

تشارلز داروِن

فبعد أن أسرف هيجل وشلنج وغيرهم في بحوث الميتافيزيقا. وبعد أن قرأوا كل ما سبق من دراسات سابقة، كانت النتيجة لا شيء. وظل الكون حتى عام ١٨٣٠م محتفظًا بسره الغامض.

لذلك كان من الطبيعي أن يخرج من الفرنسيين المعروفين بالاتجاه إلى الشك من يؤسس للحركة الإيجابية. وكان ذلك هو «أوجست كومت» الذي ولد في مونبلييه في عام ١٧٩٨م. وكان بنيامين فرانكلين هو مثله الأعلى وكان كومت يسميه سقراط العصر الحديث. وقال إن فرانكلين قرر وهو في الخامسة والعشرين من عمره أن يصبح حكيمًا وحقق ما أراد. وقال عن نفسه: «وقد أخذت على نفسي عهدًا أن أهتدي بخطاه وأبلغ من الحكمة أعلى المنازل. وكان ذلك جرأة شديدة مني لأني لم أكن قد بلغت العشرين من عمري بعد.» وقد بدأ كومت حياته كسكرتير لكاتب عظيم كان يحلم بإنشاء مدينة فاضلة. إلا أنه واجه كثير من المشكلات.

واجه كومت كل الصعوبات التي تواجه المصلحين عادة. وفي عام ١٨٢٧م وبعد عامين من المشكلات الزوجية أصيب كومت بمرض عقلي وانهيار عصبي، فحاول الانتحار بإلقاء نفسه في نهر السين إلا أنه وجد من أنقذه. ولذلك فهو مدين له لأنه كتب بعد ذلك خمسة مجلدات بعنوان «الفلسفة الإيجابية» وظهرت تلك المجلدات في الفترة ١٨٣٠-١٨٤٢م كما كتب أربعة مجلدات عن «السياسة الإيجابية» في الفترة ١٨٥١-١٨٥٤م.

وفي تلك المجلدات رتب كومت العلوم تبعًا لتدرج مادتها من حيث البساطة والتعميم. حيث وضع الرياضيات ثم الفلك والطبيعة والكيمياء والأحياء وأخيرًا علم الاجتماع. وكان كل علم من تلك العلوم يقوم على ما ورد في العلوم التي قبله من نتائج. ولذلك جاء علم الاجتماع على قمة كل العلوم.

ورأى كومت أيضًا أن من يؤرخ للفكر يمكنه أن يرى أن هناك قانونًا من ثلاث مراحل، وهي:

- في البداية كان الإنسان يفسر كل شيء تفسيرًا لاهوتيًا، وفسر على ذلك الأساس كل شيء. فقد اعتقد بوجود إله وراء كل ما لا يستطيع فهمه. فقال إن هناك إله لكل شيء.
- وبعد ذلك بدأ الإنسان يفسر كل شيء تفسيرًا ميتافيزيقيًا بحتًا، فيقول مثلاً إن النجوم تسير في دوائر لأن الدائرة أكمل الأشياء.

- ثم اتجه العلم إلى درجة العلم الإيجابي أو اليقيني الذي يقوم على الملاحظة الدقيقة ووضع الفروض والتجربة، وكذلك تفسير الظواهر باستخدام الربط بين السبب والمسبب.

وهنا أعلن كوميت أن الميتافيزيقا ما هي إلا حاجز يعوق التطور وأن الوقت قد حان للتخلي عن سخافاتها، كما رأى أن الفلسفة هي تنسيق للعلوم كلها من حيث تأثيرها على حياة الإنسان.

إلا أن كومت تخلى عن تعصبه للمذهب العقلي. وحدث ذلك بعد أن وقع في حب امرأة تدعى "كلوتلدفو" وكان زوجها محكوم عليه بالسجن المؤبد. وقد أدى ذلك الحب الجامح إلى أن يغير كومت فلسفته، فيعطي الشعور أهمية تمجده وتعليه على العقل.

لذلك رأى كومت بضرورة وجود دين جديد يشجع الناس على المحبة والتراحم. وقد أمضى كومت سنوات كهولته في وضع نظام معقد للقساوسة والطقوس الدينية والصلوات لذلك الدين الجديد، دين الإنسانية !! كما وضع تقويمًا جديدًا حلت فيه أسماء أبطال التقدم والرقي العلمي محل أسماء آلهة الوثنية. وكان لمذهبه هذا أثر واضح في الفلسفة الإنجليزية عند بيكون وهيوم وغيرهما.

ثم بدأت الثورة الصناعية في تنشيط العلوم، وبدأت نهضة في الكيمياء والكهرباء والطاقة. وكان علم الأحياء قد وصل إلى درجة من الرقي والتقدم، ووصل بإنجلترا إلى مكانة لم تصلها من قبل. وامتد ذلك في العالم، وهنا خرج كانط بالحديث عن إمكانية تطور القرد إلى إنسان وتحدث جوته عن تطور النبات. كما كتب دارون ولامارك عن نظرية التطور، وكيف أن النوع من الممكن أن يتطور بسبب تأثير الاستعمال وعدم الاستعمال. فكانت حركة علمية وفلسفية كبرى هزت أوروبا وكانت هناك المقابلات والمحاورات بين الفلاسفة وهذا ينتصر على ذلك ويدعم آراءه، والعكس صحيح.

وفي عام ١٨٥٢م كتب سبنسر مقالاً عن فكرة التطور، وذلك قبل دارون. ثم نشر دارون وولاس أبحاثهما في روسيا في عامي ١٨٥٥م و١٨٥٨م. وفي عام ١٨٥٩م، اهتز العالم وثار رجال الدين لظهور كتاب "أصل الأنواع" لدارون. فلم يقدم الكتاب مجرد فكرة غامضة عن تطور الأنواع السفلى للكائنات ووصولها للكائنات العليا فقط، بل جاء

حافلاً بالأدلة ومفصلاً. فتحدث عن عملية التطور بالانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح من الأجناس المفضلة.

ظل العالم أجمع يتحدث عن نظرية داروِن للتطور طوال عشرين عامًا. وهنا تمكن سبنسر من اعتلاء موجة التطور لما له من فكر صاف وعقل واضح. فطبق الفكرة في كل مجالات الدراسة، وهكذا سادت الأحياء في القرن التاسع عشر وأصبحت العمود الفقري للفلسفة، وظهر تأثيرها في ما قاله شلنج وشوبنهور وسبنسر ونيتشه وبرجسون. وهذا يشبه تمامًا ما حدث في القرن السابع عشر وسادت الرياضيات على الفلسفة، وظهر ذلك في أعمال ديكارت وهوبز وسبينوزا وبسكال وغيرهم.

• ٢- نشأة سبنسر:

ولد هربرت سبنسر في دربي عام ١٨٢٠م. وكان عمه قسيسًا أنجيليكانيًا، إلا أنه كان من أتباع ويسلي واشترك بفاعلية في حركات الإصلاح السياسي. وقد كان أبوه ملحدًا، واشتدت تلك النزعة الإلحادية في نفسه ووصلت إلى أقصاها. وقد وصفه أحد أصدقائه بأنه رجل لا دين له. كما كان معلمًا للهندسة، وقد ألف كتابًا في الهندسة. لم يرفع الأب قبعته تحية لأحد أبدًا مهما كانت منزلته. وعندما كانت زوجته تسأله سؤالا لا يعرف إجابته، كان يلوذ بالصمت. وظل على هذا الحال طوال حياته. وهذا الموقف يذكرنا بموقف ابنه هربرت سبنسر عندما قاوم الحكومة لتوسع صلاحياتها.

وعلى الرغم من أن أبوه وعمه وجده كانوا معلمين يعملون في التعليم الخاص، إلا أن سبنسر الذي يعتبر أشهر فيلسوف إنجليزي لم يتلق أي تعليم منتظم إلى أن بلغ أربعين عامًا. وما يروى عن علاقته بالتعليم والقراءة يثير التعجب. فقد أرسله أبوه وهو في الثالثة عشر من العمر ليتعلم في "هينتون" تحت إشراف عمه المعروف بالصرامة والشدة. إلا أنه عاد إلى "دربي" سيرًا على الأقدام في ثلاثة أيام. فأعاده والده إلى "هينتون" وأمضى فيها ثلاثة أعوام يدرس ما لم يحتفظ به من معلومات على الإطلاق. وقد افتخر بأنه لم يتلق درسًا واحدًا في اللغة الإنجليزية لا في الطفولة ولا في الشباب.

وفي سن الأربعين بدأ يقرأ الإلياذة، إلا أنه سرعان ما تركها لصعوبتها، وقال إنه مستعد لدفع مبلغ كبير من المال ليتجنب قراءتها. فقد أدرك أنها مهمة كبرى لا يقوى عليها. ويحدثنا عنه سكرتيره "كولبير" فيقول إنه لم يقرأ كتابًا واحدًا في العلوم حتى

آخر الكتاب، بل يقرأ أجزاء فقط. وحتى الموضوعات التي يحبها، كان لا يقرأ فيها بطريقة منتظمة.

كما حاول سبنسر أن يقرأ ما كتبه كانط إلا أنه ألقى الكتاب بعيدًا وقرر عدم المواصلة، وذلك عندما قرأ ما كتبه كانط عن أن "الزمان والمكان صورتان حسيتان وليستا حقيقتين موضوعيتين" حكم عليه بالغباء.

ويواصل سبنسر عجائبه، فيؤلف أول كتبه بعنوان "التوازن الاجتماعي" وهو لم يقرأ سوى كتابًا واحدًا عن الأخلاق. وفعل نفس الشيء في الأحياء بعد أن قرأ كتابًا واحدًا أيضًا عن علم وظائف الأعضاء. كما ألف كتابًا في علم الاجتماع دون أن يقرأ ما كتابه رواد مثل كومت وتيلر. وكل ذلك يوضح قلة اطلاعه وثقافته المحدودة.

لكن كيف لمثله أن يسوق في كتاباته ونقاشاته آلاف الحقائق دون قراءة كافية. تمكن سبنسر من ذلك في الحقيقة بالاعتماد على الملاحظة، فقد كان قوي الملاحظة ومحب للاستطلاع. وكان يلفت نظر من حوله إلى ما لا يمكن أن يلاحظه سواه من ظواهر. كما أن عقله يعمل كالمغناطيس، فهو يلتقط كل ما يلزم من جزئيات المعلومات التي لها علاقة بموضوع ما يفكر فيه أو يتناوله في أحد كتبه. كما كان قادرًا على حسن تنظيم أفكاره وعرضها بطريقة بسيطة وواضحة.

فلا عجب إذن إن وجدنا أن كتبه تلقى رواجًا عند العمال ورجال الأعمال على حد سواء. ومع ذلك فقد امتاز بالقدرة على الوصول إلى الحقائق من خلال ما يقوم به من تجارب.

وكان سبنسر مضطرًا للعمل كي يكسب قوت يومه، فعمل في وظائف نمت عنده التفكير العلمي. فعمل مساحًا للأرض ومشرفًا ومنفذا لإقامة الجسور وخطوط السكك الحديدية. أي أنه كان مهندسًا، مما مكنه من تسجيل الكثير من الملاحظات وإجراء الكثير من التجارب.

وكان لسبنسر الكثير من الاختراعات الجديدة التي كانت تنتهي بالفشل في كثير من الأحيان. إلا أنه كان يعود إلى مراجعتها من حين لآخر، فقد كان عنيدًا ومتشبثًا بأفكاره مثل أبيه. إلا أنه كان يعدل أفكاره حين تقتضي الحاجة إلى ذلك، ومن ذلك أنه كان نباتيًا في طعامه ولا يأكل أي لحوم لفترة طويلة. إلا أنه عندما رأى أحد أصدقائه

يصاب بفقر الدم وكان نباتيًا تخلى عن ذلك الاتجاه. كما أنه أعاد كتابة ما كتبه أيام كان نباتيًا لاعتقاده بافتقار ما كتبه في تلك الفترة إلى القوة.

وكانت الملاحظة والتفكير الطويل هي سماته الواضحة. فعندما قرر الهجرة، أعد أوراقًا يفاضل فيها بين الهجرة والبقاء في الوطن. وفي نهاية تسجيل ما وجد من أسباب لكلا الاحتمالين، وجد أن هناك ١١٠ أدلة على ضرورة بقائه في إنجلترا، و٣٠١ دليل على ضرورة السفر. إلا أنه لم يسافر.

كما أن نظرته الواقعية وتناوله للأمور العلمية أبعدته عن الفن والشعر. حيث لم يرد بيت شعر واحد في ٢٠ مجلدًا ألفها، حتى أن الناشر أضاف بعض أبيات الشعر هنا وهناك وكأن سبنسر يصف فيها نبوءات علمية.

وكان سبنسر صريحًا وجريئًا ومتغطرسًا ومتمسكًا بآرائه. وقد رفض كل أنواع المداهنة والمدح، كما رفض كل ما قدمته له الحكومة من ألقاب. وقد عمل لمدة ٤٠ عامًا رغم اعتلال صحته الدائم. وقد كانت لعزلته ووحدته أثرًا في عواطفه، فقد كانت عواطفه جامدة تفتقد الحرارة. وكان سبنسر على علاقة مع الكاتبة البريطانية المعروفة آنذاك باسم "جورج إليوت". وكانت "إليوت" على قدر كبير من الذكاء، إلا أنها لم تتمكن من إدخال السرور على قلبه، فقد كان يفتقد المرح والسرور. ومن الطريف أن سبنسر لام من هزمه في لعبة البلياردو (لعبته المفضلة) قائلاً بأنه أسرف في ممارسة اللعبة فأجادها وأصبح خبيرًا فيها.

يروي سبنسر عن نفسه أنه كان يتصفح كتبه القديمة وأن هذه المهمة جعلته يعطي الحياة قدرًا كبيرًا من الجدية أكثر مما تستحق. وعندما ذهب إلى باريس انتقد الفرنسيين وقال إنهم لا يزيدون عن أنهم صبية. وقد انشغل بتحليل الحياة ووصفها، لدرجة عدم توفر وقت يمكنه من أن يعيش حياته كما يحب.

وعندما كان سبنسر يقوم بتنقيح مقالاته قبل النشر في عام ١٨٥٨م أعجب بما فيها من وحدة التفكير وتسلسله. فجاءته فكرة جيدة جدًا، وهي احتمال تطبيق نظرية التطور في كل العلوم كما تم تطبيقها في الأحياء. وقد شرع بهمة وحماس في كتابة سلسلة من الكتب يوضح فيها تطور المادة، من السديم إلى الإنسان ومن الوحش الكاسر إلى شكسبير. لكنه لم يستطع مواصلة العمل في ذلك المشروع، لأنه كان قد

اقترب من الأربعين من العمر، فكيف له أن يستعرض كل الموضوعات المطلوبة قبل أن يموت.

وقد عمل سبنسر كمحرر في صحيفة إيكونوميست، إلا أنه استقال عندما ورث من عمه مبلغ ٢٥٠٠ جنيه، كان عمه أوصى له بها. لكنه سرعان ما أنفق المبلغ الكبير، فقام بعمل اشتراكات للكتب التي سوف يصدرها وتوزع في أوروبا وأمريكا. وقد استطاع جمع مبلغ ١٥٠٠ جنيه، فعمل بجد واجتهاد. إلا أن كثيرًا من المشتركين ألغوا اشتراكهم بعد أن أصدر كتابه "المبادئ الأولى" في عام ١٨٦٢م. وذلك بسبب ما ورد في الجزء الأول من الكتاب. حيث هاجم العلماء وهاجم رجال الدين، حينما أراد أن يوفق بين العلم والدين. ثم واجه سبنسر مشكلات مالية مع تزايد عدد المشتركين الذين يسحبون اشتراكاتهم. ووصل به الحال إلى عدم استطاعة المواصلة، فاعتذر إلى من تبقى من المشتركين وتوقف عن الإصدار.

إلا أنه حدث ما لم يكن في الحسبان أبدًا، فقد أرسل له أعظم منافسيه وهو "جون ستيورت ميل" يعرض عليه بأدب جم تولى شأن الإنفاق على ما ينشر من كتب. إلا أن سبنسر اعتذر بلباقة. فاستخدم "جون" طريقة غير مباشرة وطلب من أصدقائه الاشتراك، فاشترك كل واحد منهم بمائتين وخمسين نسخة. إلا أن سبنسر رفض المواصلة أيضًا. وفي تلك الأثناء، جاءته رسالة من أمريكا تفيد بأن معجبيه هناك اشتروا باسمه أسهما بمبلغ ٤٠٠٠ دولار يتم إرسال عائدها إليه، فوافق سبنسر على هذا العرض. وقد ألهبت هذه الهبة حماسه وواصل مهمته.

• ٣- المبادئ الأولى:

الحقيقة المجهولة:

يرى سبنسر أن علينا أن نتناول الآراء الدينية ونحن نضع نصب أعيننا الحقيقة الكامنة وراء تعدد الديانات. فهذه الحقيقة هي ما تعطي للدين قوته. كما رأى أن كل نظرية عن أصل الكون تؤدي بنا إلى أمور لا يستوعبها العقل، ويقف أمامها عاجزًا لا يستطيع أن يفهم شيئًا منها. فالملحد الذي ينكر وجود الله لا يحاول أن يفكر في عالم لم ينشأ عن علة وليس له بداية. أما نحن فلا يمكننا أن نتصور شيئًا لا بداية له ولا علة له. أما رجل الدين فهو يقول إن الله خلق العالم، لكنه لا يستطيع الرد على الطفل

حين يسأله: ومن خلق الله[1]؟ لذلك فالأفكار الدينية لا تخضع للمنطق. ويجتمع مع الموضوعات الدينية في هذا الموقف كل القوانين العلمية، فهي كلها وراء الإدراك العقلي.

فإن أخذنا المادة على سبيل المثال، نجد أن العلم يقول إنها تنقسم إلى ذرات، وأن الذرات تنقسم إلى جزيئات والجزيئات تنقسم إلى جزيئات أصغر منها وهكذا. وهذا أمر يصعب قبوله وتصوره. فهل هناك حد يتوقف عنده التقسيم، هذا أيضًا أمر يصعب أن نتصوره. وهكذا نجد أن حتى المكتشفات العلمية يكتنفها الغموض. والسبب الرئيسي لهذا الغموض هو نسبية جميع أنواع المعارف.

وعلى أساس كل ما سبق، يصبح التوفيق بين العلم والدين أمرًا بسيطًا وميسرًا. وينتج هذا التوفيق عن اعتراف العلم بأن قوانينه تنطبق على الظواهر والأمور النسبية فقط. ويعترف الدين أن اللاهوت خرافة لتبرير ما يتنافى مع العقل. وليتوقف الدين عن التصوير الخاطئ لله عز وجل، كذلك يتوقف العلم عن إنكار وجود الله (جل وعلا).

التطور:

بعد الإشارة إلى هذا المجهول والحقيقة الغامضة، ليس بوسع الفلسفة إلا أن تعترف بعجزها عن الوصول إلى الحقيقة وراء ظواهر الأشياء. وأن تتوجه لدراسة ما يمكن إدراكه والتعرف عليه. فالميتافيزيقا سراب خادع، وأفضل مجال يمكن أن تعمل فيه الفلسفة هو تلخيص نتائج العلم وتوحيدها. وهذا التوحيد بحاجة إلى قانون عام يشمل جميع التجارب وجميع أنواع المعرفة، فهل هناك قانون من هذا النوع ؟

من الممكن أن نقترب من هذا القانون بمحاولة توحيد أعم التعميمات في العلوم الطبيعية. مثل عدم تلاشي المادة وبقاء الطاقة واستمرار الحركة واتزانها وانتظامها وغير ذلك. وكل هذه المعلومات تأكدنا منها. يقول سبنسر: "يجمّع التطور بين أجزاء المادة وهذا يلزمه تبديد للحركة، تنتقل المادة من خلال ذلك من حالة التجانس المنقطع اللامحدود إلى حالة التباين المتلاصق المحدود." فما معنى هذه العبارة؟

(١) - الرد سهل وبسيط، فالخالق القادر الواحد الأحد يخلِق كل شيء ولا يُخلق. وهو منزه جل وعلا عن التشبيه بمخلوقاته. (المترجم)

معنى هذه العبارة يتضح في تكون الكواكب من السديم، وتشكيل البحار والمحيطات على الكرة الأرضية، وتطور العائلات والأسر إلى قبائل ومدن ودول أحلاف. وما كل هذه الأمثلة إلا للتدليل على أن تجمع أجزاء الأشياء يكون الكتل والجماعات. كما أن هذا التجمع يعطي للشيء شكلاً ومعنى. فالسديم لا شكل له، ومع ذلك تتكون منه الكواكب البيضاوية. كما تتكون الجبال ذات القمم الحادة من الصخور والأحجار.

هذا بالإضافة إلى أن لكل أمة ما يجمعها من لغة وعلم وأساطير شعبية ولهجات وفنون. ثم يعود كل شيء إلى الجهة العكسية مرة أخرى، فيتحول التجمع إلى انتشار وتشتت ويعود التعقيد إلى البساطة. إلا أن سبنسر لا يقتنع بهذا القانون ويحاول أن يثبت ضرورة لابد منها تنتج عن القوى الآلية الطبيعية. فهو يرى أن الأشياء المتجانسة لا تظل متجانسة طوال الوقت، وذلك لأنها تتعرض لتأثيرات خارجية. هذا بالإضافة إلى تعدد النتائج. فقد يكون لشيء واحد فقط عدة نتائج في نفس الوقت، وهي تؤدي إلى وجود اختلافات في كل شيء في هذا العالم.

هذه هي الحياة التي تجمع وتفرق، تُؤلف وتُنافر، وتجمع الأجزاء في وحدة واحدة تنمو باستمرار ثم يدركها التنافر، فتبدأ في التلاشي والتفكك.

وفي النهاية يأتي التوازن الذي لابد منه. فكل حركة تواجه مقاومة وتنتهي إلى التوقف إن عاجلاً أو آجلاً. وبالمثل، تضيق مدارات الكواكب مع مرور الوقت وتقل حرارة الشمس كلما تقدم الزمان. ثم تسير الدماء في عروقنا ببطء وتبرد. ثم يتحول التوازن إلى انحلال وهذه هي الخاتمة التعيسة للتطور في كل شيء. ويحدث نفس الشيء في الإنسان. ثم تبدأ دورة جديدة ثم دورة تليها دورة إلى ما لا نهاية من الدورات التي تبدأ بالتطور وتنتهي بالانحلال. فيصبح كل مولود جديد بداية جديدة للفناء والموت.

هذا هو كتاب "المبادئ الأولى" أنه يقص لنا مأساة مؤثرة، إنها قصة العالم أجمع مع التطور والانحلال. وليس من الغريب أن يثور عليه المؤمنين وأصحاب الأمل في الحياة من أجل هذا الكتاب. فالناس تعرف أن مصيرها الموت لكنها لا تفكر فيه وتفضل التفكير في الحياة.

لقد اقترب سبنسر من أفكار شوبنهور في نهاية حياته، وذلك لاعتقاده بعبث جهود الإنسان وانعدام قيمتها. وقد أصيب بمرض الفلاسفة وهو بُعد النظر، فمرت كل مسرات الحياة وكل متعها من أمامه مباشرة دون أن يراها.

• ٤- علم الأحياء: تطور الحياة

يبدأ سبنسر كتابه الثاني "تطور الحياة" بتعريف الحياة نفسها، وهو يرى أنها عملية توفيق مستمر ما بين الكائن الحي وبيئته. ويتوقف كمال الحياة على كمال هذا التوفيق. فالكمال التام في ذلك التوفيق يؤدي إلى حياة سعيدة متكاملة. كما يرى سبنسر أن حياة الإنسان هي نوع من التوفيق بين العلاقات الداخلية والعلاقات الخارجية. أي التوفيق بين دور الإنسان في التناسل ودوره كمواطن في البيئة المحيطة به.

لكن كل شيء في تلك العلاقات له موعده المحدد والمناسب. مثلما يحدث في الحيوانات، فإن سمح مربي للخيول لمهرة صغيرة بالتناسل والحمل، فإن ذلك سيؤثر على نموها هي. وبالمثل الحيوانات التي يتم استئصال خصياتها مثل الديوك والخراف والقطط، يكبر حجمها أكثر من أقرانها التي لم تستأصل خصياتها.

ومن جهة أخرى، تتراجع قدرات التناسل مع تقدم العمر. لكن عندما يتعرض الحيوان لأخطار قوية تزيد خصوبته حتى يتم تعويض ما يموت من هذا النوع من الحيوانات. والعكس صحيح، فعندما يكون الحيوان قادرًا على حماية نفسه، تكون الحاجة إلى التناسل أقل، خوفًا من أن يزيد عدد ذلك النوع من الحيوانات عما هو متوفر من طعام لها.

وعلى أي حال، هناك تعارض بين تطور الفرد والخصوبة. فكلما زاد التطور ورقي النوع، قلت نسبة التناسل بينها. وكلما ارتقى العقل وزاد ذكاؤه قل نسله. وحينما نجد خصوبة في التناسل نجد بلادة في العقل. وحينما يزيد نشاط العقل أثناء التعليم يزيد الضعف التام. وكلما اقتربت النساء من الأمومة يقل نشاطهن العقلي.

وعلى الرغم من ذلك التوفيق بين التوالد والحاجة إلى بقاء النوع، فإن هذا التوفيق ليس مكتملاً تمامًا. وذلك لأن سكان العالم يتزايدون بنسبة لا تتمشى مع زيادة الطعام. لقد كان ضغط السكان الناتج عن زيادة عددهم هو السبب المباشر للتقدم، إلا أنه أدى إلى انتشار الجنس وأرغم الناس على التخلي عن حياة السلب والنهب والاتجاه إلى حياة الزراعة. كما أدى إلى نظافة سطح الأرض وتعود الناس على الحياة الاجتماعية. وكما تطورت الحياة الاجتماعية وتحسن الإنتاج، زادت المهارة وزاد الذكاء. وهذا هو العامل الفعال وراء التنازع على البقاء الذي يجعل الحياة للأصلح ويرفع مستوى الجنس البشري.

• ٥- علم النفس: تطور العقل:

يعتبر الكتابان اللذان أصدرهما سبنسر في عام ١٨٧٣م "عن مبادئ علم النفس" هما أضعف ما صدر له من مؤلفات. وكان قد كتب كتابًا في نفس الموضوع قبل ذلك في عام ١٨٥٥م. وقد دافع فيه بشدة عن المذهب المادي وعن الجبرية. وفي هذين الكتابين أفرط سبنسر في وضع النظريات إلا أنه جاء بقليل من الأدلة. وكان من بين تلك النظريات: نظرية أصل الأعصاب ونظرية أصل الغرائز، ومئات غيرها من النظريات الغامضة الأقرب إلى الميتافيزيقا منها إلى حياة الواقع. وفي هذين المجلدين، ترك سبنسر إنجلترا الواقعية واستخدم طريقة "كانط" في البحث.

لكن ما يلفت النظر هو أننا نجد أن أحد الباحثين في علم النفس يقدم لنا آراء تطورية، ويحاول تفسير التناسل ويبذل مجهودًا كبيرًا في تتبع عمليات التفكير المعقدة ويرجعها إلى عمليات بسيطة، ثم إلى حركة بين أجزاء المادة. ومن المعروف أن مجهوده هذا باء بالفشل. وقد حاول تطبيق نفس قاعدة التطور هذه على موضوعات أخرى دون تحقيق نجاح ملحوظ.

أما الإرادة بالنسبة لسبنسر، فهي اصطلاح مجرد نطلقه على مجموعة الدوافع التي تدفعنا إلى عمل شيء ما. بينما هي (الإرادة) في الحقيقة فكرة تحولت إلى عمل، ولم تجد ما يعوقها. فالفكرة هي المرحلة الأولى للعمل والعمل هو المرحلة الثانية للفكرة.

وقد أثارت هذه الافتراضات التي قال بها سبنسر التساؤلات حول ما جاء في الكتابين، وجعلت منهما عبئًا عليه.

• ٦- علم الاجتماع: تطور المجتمع:

يختلف حكمنا على سبنسر فيما كتبه عن علم الاجتماع عن حكمنا عليه في علم النفس. فما كتبه من كتب في علم الاجتماع يعتبر أعظم ما ألف. وقد استغرق في تأليف كتب علم الاجتماع ما يزيد عن عشرين عامًا. وقد تناول موضوعه المفضل في تلك الكتب أيضًا. فبدأ الحديث بتناول موضوعات الأخلاق والعدالة السياسية. وقد قدم لعلم الاجتماع ما لم يقدمه له غيره، وحتى مؤسس هذا العلم وهو "كومت" لم يبلغ فيه ما بلغه سبنسر.

وفي مقدمة الكتاب الذي أسماه "دراسة علم الاجتماع" يدعو سبنسر إلى الاعتراف بهذا العلم الجديد. وقد قال بضرورة الربط بين الظواهر الاجتماعية ومسبباتها. ومن يبدأ في دراسة حياة الإنسان الاجتماعية لن يقتنع بمجرد ترتيب الوقائع التاريخية. لكنه سيبحث عن التطور العام في تاريخ الإنسانية. كما يتناول الروابط التي تحول الحقائق المحيرة إلى علم. ولا شك أن هناك كمًّا هائلًا جدًا من العوائق التي تقف في طريق دراسة الاجتماع قبل أن يصل إلى درجة العلم.

فهذه الدراسة الوليدة -دراسة الاجتماع- تعاني من كثير من التحيز لثقافة الفرد الدارس أو دينه أو قوميته أو اللاهوت أو الاقتصاد والسياسة. وهناك قصة تحكي عن رجل فرنسي سافر إلى إنجلترا. وبعد أن أقام هناك لمدة ثلاثة أسابيع، فكر في تأليف كتاب عن الحياة في إنجلترا، ثم مرت الأسابيع الثلاثة فوجد أنها غير كافية أيضًا. ومرت فترة ثلاث سنوات ولم يشعر أنها كافية أيضًا. وطالبو علوم الفيزياء والكيمياء وغيرها من العلوم يقضون الفترة الأطول من أعمارهم في دراسة تلك العلوم. أما علوم الاجتماع والسياسة، فيتحدث فيها البقال والحلاق وغيرهم من عامة الشعب، ويرى كل منهم في نفسه أنه عالم وملم بكل كبيرة وصغيرة في هذا العالم.

وقد أعد سبنسر نفسه لمهمة الكتابة في علم الاجتماع جيدًا. فكلف ثلاثة مساعدين بجمع المعلومات وترتيبها وتصنيفها ووضعها في أعمدة طبقًا للتصنيف. وقد نشر تلك المعلومات في ثمانية مجلدات على نفقته الخاصة، وكانت أفرع التصنيف تشمل: النظم الداخلية والدينية والمهنية والصناعية والسياسية للأمم. أراد أن تكون تلك المعلومات متاحة لجميع الطلاب، لكنه مات قبل أن ينتهي من نشرها جميعًا. ولم

يترك سوى مبلغ قليل من المال. وقد ظهر المجلد الأول من تلك المجلدات في عام ١٨٧٦م، كما لم يتم إعداد المجلد الأخير قبل عام ١٨٩٦م.

ويشبه سبنسر المجتمع بالكائن العضوي، له دورة دموية وتعاون تام بين جميع الأعضاء. وهو يتناسل ويفرز مثل البشر تمامًا.

كما أن المجتمع مثل الإنسان أيضًا، يسير وفق نظرية التطور. فتنمو الوحدة الاجتماعية من الأسرة إلى العائلة فالقبيلة فالدولة ثم إلى عصبة الأمم. كما أن التطور واضح أيضًا في المهن والصناعات والتجارة والاقتصاد.

أنظمة المجتمعات:

تحدث سبنسر في هذا الكتاب أيضًا عن نظم الدول، فالدولة العسكرية لها حكومة مركزية، وتكون ملكية في أغلب الأحوال. وهي حكومة تعتمد على قوة العسكر وتشجع على التسلط الديني وتنمي الفروق بين طبقات المجتمع. كما أنها تعظم من سلطة الرجل وترفعه في مكانة عالية جدًا عن المرأة.

ولأن نسبة الوفيات في تلك المجتمعات الحربية عالية، فهي لهذا السبب تميل إلى تعدد الزوجات، وتحقر من شأن النساء. كما أن معظم الدول كانت دولاً حربية تعتمد على حكومات مركزية وتجعل كل ما في الدولة من خدمات تابعة للحكومة. وتاريخ العالم مليء بالجرائم الكبرى التي تمت في مثل تلك الدول مثل السلب والنهب والقتل والخيانة وأكل لحوم البشر (في المجتمعات المتخلفة). كما يوجد في بعض المجتمعات المتقدمة ما هو أسوأ من أكل لحوم البشر، فبعض تلك الدول تستعبد شعوبًا كاملة وتبتلع خيراتها. وإن لم يتم منع الحروب نهائيًا، ستظل المدنية الحديثة تترنح من كارثة لأخرى.

وما يمكننا من تحقيق أمل توقف الحروب تمامًا وتحقيق العدالة الاجتماعية هو تطور الصناعة فقط. فتطورها يحقق السلام العالمي ويؤدي إلى نهضة الأمم ونهضة اقتصادها. وهذا لا يحدث بالطبع إلا في جو من الحرية التي تدعم ظهور مزيد من الاستثمارات.

وهكذا يصبح رأس المال دوليًا وعالميًا، ويمكن استثمار المال في أي مكان في العالم، وهذا يدعم الاستقرار والأمن في العالم أجمع. وعندما تقل الحروب أيضًا، يحل

قانون الزوجة الواحدة محل قانون تعدد الزوجات. وهنا تختفي الخرافات الدينية وتفسح الطريق أمام المذاهب العملية التي تركز على إصلاح حياة الإنسان وتحسين الأخلاق وفهم آلية هذا الكون.

كما يبدأ التاريخ في دراسة حياة الناس وهم في أعمالهم، بدلاً من دراسة حياة الملوك وحروبهم. ويقبل أيضًا على تسجيل الأفكار والاختراعات بدلاً من الحرص على تسجيل السير الذاتية للمشاهير. كما تقل التبعية للحكومة ويكون التعاون الطوعي هو السائد وليس التعاون الإجباري.

وقد اعتبر سبنسر أن موطنه إنجلترا مثال للمجتمع الصناعي. وذلك على الرغم من أنه يستنكر وبشدة الروح الاستعمارية العسكرية المتفشية فيها. كما اعتبر أن ألمانيا وفرنسا أمثلة للدول العسكرية الحربية. وقد رأى أن النظم الإقطاعية ينتهي بها الحال إلى أن تكون نظمًا اشتراكية.

النظام الاشتراكي:

والنظام الاشتراكي يشبه النظام العسكري، فهو نظام مركزي أيضًا والحكومة فيه ذات مسئوليات واسعة أيضًا. والاشتراكية تؤدي حتمًا إلى تحول الشعب إلى مجموعة من النمل أو النحل، إي إلى نظام أشد استعبادًا وقهرًا من الوضع الحالي في نفس تلك الدول التي تسير في هذا الاتجاه.

نظرته للعمال:

يشمئز سبنسر بشدة من مجرد تصور مجتمع تحكمه طبقة العمال، كما أنه لم يتأثر أو يتفاعل مع ما نشرته اتحادات العمال والنقابات العمالية من دعايات لزعمائها. وكان يقول إن الإضرابات العمالية للمطالبة برفع الأجور لا فائدة منها. لأن الأجور سترتفع وترتفع معها أسعار كل شيء، ويظل موقفهم على ما هو عليه. وهنا يصبح العمال مظلومين وأصحاب العمل مظلومون أيضًا.

ومع كل ما تقدم، فإن ما توصل إليه سبنسر من نتائج ليس مجرد ملاحظات في الهواء. فقد أدرك ما في النظام القائم في بلاده من فوضى ومشكلات، وبحث بجدية عن نظام يحل محله.

• ٧- أخلاق: تطور الأخلاق:

قال سبنسر إن الأخلاق يجب أن تقوم على أساس من علم الأحياء. أي أن تكون خاضعة لقوانين التطور والانتخاب الطبيعي. لكن العالم "هكسلي" في عام ١٨٩٣م رفض أن يكون علم الأحياء أساسًا تقوم عليه الأخلاق. ويرى أننا لا يمكن أن نترك للطبيعة تحديد أخلاقنا وهي تعلي من قدر القسوة والخداع والمكر ولا تنشر مبادئ العدل والمحبة. إلا أن سبنسر تمسك برأيه، ورأى أن قانون الأخلاق الذي لا يصمد أمام اختبار قانون الانتقاء الطبيعي مصيره الفشل. كما رأى أن الأخلاق مثل أي شيء آخر يمكن أن تكون خيرًا أو شرًا طبقًا لتناسبها مع أهداف الحياة. كما أن مفهومي الخير والشر يختلفان بشدة من مكان إلى آخر. فكثير من الشعوب الشرقية ترى أن أخلاق الشعوب الغربية لا تناسبها وتعتبر أمورًا لا أخلاقية بالنسبة لهم. كما أن بعض الدول المتخلفة تعتبر أن تعدد الزوجات والانتحار أو حتى قتل الآباء أخلاق فاضلة.

تعذيب الزوجات:

ففي قبائل "فيجان" تعتبر الزوجات أن تعذيبهن بعد موت أزواجهن واجبًا مقدسًا. وقد تمكن أحدهم من مساعدة إحدى المعذبات على الهرب إشفاقًا عليها، لكنها ما أن قويت على الحركة هربت وعادت لتستكمل تلقي التعذيب، بل واعتذرت لأنها هربت في لحظة ضعف.

وهذه امرأة أخرى اتهمت من خلصها من العذاب وهربها من معذبيها بالتعدي على حرمة الواجب المقدس.

وقد تعجبت نساء "الماكولو" في زامبيا عندما علمن أن الرجل في إنجلترا لا يتزوج إلا من امرأة واحدة فقط. فمن وجهة نظرهن أن من يكتفي بزوجة واحدة لا يستحق الاحترام. والزوجات الأفريقيات يضغطن على أزواجهن من أجل الزواج بالزوجة الثانية، كما أنهن يتهمن أزواجهن بالبخل إن تلكأ الزوج في الإقبال على الزيجة الثانية. وكل هذه الحقائق تتعارض مع إمكان وجود إحساس أخلاقي فطري في الإنسان ينظم قيم الأخلاق ويمكن تطبيقه على الإنسان في كل مكان من أنحاء هذا العالم متباين الظروف ومجتمعاته المختلفة.

فالأخلاق المعترف بها في أوروبا وأمريكا هي الأخلاق المسيحية السلمية. أما الأخلاق الفعلية فهي الأخلاق العسكرية والتي استمدت منها الطبقات الحاكمة لمعظم دول أوروبا أخلاقها.

• ٨- نقـد:

لا شك أن القارئ قد أدرك وجود بعض المصاعب فيما قدمه لنا سبنسر من تحليل للأخلاق. فالنقد السلبي لا يُرضي دائمًا، وخاصة أمام ما قدمه لنا سبنسر من إنتاج جيد. لكن من واجبنا أن نرى ما أدخله الزمن على أفكار هذا الفيلسوف من تغيرات.

المبادئ الأولى:

أول ما يواجهنا في كتاب المبادئ الأولى هو ما يقوله سبنسر من أن هناك حقيقة غائبة لا يمكننا الوصول إليها. وإن كنا لا نلومه على ذلك إلا أننا لا يمكننا القول بأن هناك ما هو مغلق تمامًا ويستحيل الإلمام به من كل جانب. فحين نقر بأننا لا نعرف أي شيء عن أمر ما هو في حد ذاته اعتراف بأننا نعرف عنه شيئًا. وقد أظهر سبنسر نفسه -فيما كتب من مجلدات عشر- أنه على معرفة جيدة بتلك الحقيقة التي يسميها مغلقة أو مجهولة. وكما قال "هيجل" فإن تقييد العقل بالعقل كمن يحاول السباحة دون النزول إلى الماء.

ثم يأتي دور ذلك التعريف الفضفاض الذي وضعه سبنسر للتطور. فهو يعرّف التطور بأنه الانتقال من البسيط إلى المركب. فهل فسر هذا التعريف أي شيء في الطبيعة، بالطبع لا. إنه يحلل الطبيعة فقط ولا يفسرها، كما قال "برجسون". وأضعف ما قاله سبنسر في تعريف التطور هو أن المادة غير مستقرة وتنتقل من التجانس إلى التنافر.

كما أخطأ سبنسر حين قال إن التطور يسير من البسيط إلى المعقد. ففن المعمار اليوناني أبسط من الفن المعماري القوطي. لذلك فقد تسرع سبنسر عندما قال إن الأسبق زمنيًا يكون أبسط في التركيب والبناء. فهذا يتناقض حتى مع علم الأحياء الذي قال بأنه أساس لكل شيء. كما أن هذا التعريف لا يرتبط بالانتخاب الطبيعي الذي قال به من قبل، ولا يتمشى معه.

وقد قال سبنسر عن نفسه: "لقد أسرفت في التفكير في المجردات، وهذا جعلني أسيء الملاحظة."

كما أن سبنسر بدأ كما يبدأ رجل العلم بالملاحظة، ثم وضع الفروض وهذه هي طريقة رجل العلم أيضًا، ثم حاد عن طريقة رجل العلم بعد ذلك. فهو لم يستخدم التجريب أو الملاحظة، وهي طرق علمية. لكنه اختار المعلومات التي تؤيد وجهة نظره وكان يتجاهل ما يصل إليه ويتعارض مع رأيه. وهذا على العكس مما فعله دارون، فكان يسارع بتسجيل ما يصل إليه ويتعارض مع نظريته خوفًا من نسيانها. وقد رأى "دارون" أن الإنسان ينسى ما يتعارض مع أفكاره، أما ما يؤيدها فيبقى حيًا في الذاكرة.

علم الأحياء وعلم النفس:

اعترف سبنسر في مقاله عن التقدم أن فكرته هذه مأخوذة من نظرية "لامارك" الخاصة بالأخلاق المكتسبة. وهي لا تقوم على نظرية الانتخاب الطبيعي لدارون. ومعنى ذلك أن سبنسر أخذ من "لامارك" أكثر مما أخذ من "دارون" بكثير. فقد كان سبنسر في الأربعين من العمر عندما ظهر كتاب "أصل الأنواع "لدارون" وفي ذلك العمر تكون أفكار الإنسان قد ثبتت.

أما مجلداته التي كتبها عن علم النفس، فهي تقدم صيغًا ومصطلحات ولا تقدم معلومات جديدة، كما أن كثيرًا من الصيغ والمصطلحات التي أراد أن يشرحها ويوضحها، قام بشرحها وتوضيحها بطريقة أكثر تعقيدًا وغموضًا.

اجتماع وأخلاق:

كما عرّضه كتابه الضخم عن علم الاجتماع، وهو كتاب مؤلف من ٢٠٠٠ صفحة، للهجوم والنقد. فقد قال في هذا الكتاب إن التطور والتقدم مترادفان. كما افترض سبنسر في كتابه هذا أن الدولة الصناعية سلمية أكثر وأخلاقها أفضل من أخلاق الدولة الإقطاعية الحربية السابقة لها، والتي كانت سائدة في العصور الوسطى، لكن هذا الافتراض غير واضح ويفتقر إلى دليل. فقد وقعت أكثر الحروب تدميرًا وتخريبًا في أثينا بعد مدة طويلة جدًا من سقوط النظام الإقطاعي وزواله واستسلامه للنظام البرجوازي التجاري. كما قامت دول أوروبا بحروب طاحنة بالرغم من أنها دول صناعية. كما أن

بعضها دول استعمارية وحربية وعسكرية، ولا تزال توجد عائلات إقطاعية حاكمة في كثير من تلك الدول.

ولابد لنا أن نشير إلى أن سبنسر عاصر عهدين. فقد كون آراءه السياسية في الأيام التي لم تكن الدولة تتدخل في الشئون الاجتماعية والاقتصادية. بينما عاش سنواته الأخيرة فترة كفاح إنجلترا من أجل تصحيح أخطاء النظام الصناعي.

ويكفينا هذا القدر من التعليق النقدي على سبنسر وأعماله، وسنعود إلى الحديث عن الرجل مرة أخرى وننظر إلى أعماله ومؤلفاته من منظار العدل.

• ٩- ختـــــام:

فور صدور كتاب "المبادئ الأولى" أصبح سبنسر أعظم فيلسوف في عصره. وسرعان ما تمت ترجمة الكتاب إلى كثير من اللغات الأوروبية ومنها اللغة الروسية، وكانت روسيا تعاني من اضطهاد الحكومة للشعب في ذلك الوقت. وقد طالب كثيرون بجعله نبراسًا لفلسفة العصر. ولم يقتصر تأثير الكتاب على الحركة الفكرية في أوروبا فقط، بل امتد إلى الفن والأدب أيضًا. ومما أثار دهشة سبنسر نفسه أن تقرر جامعة أكسفورد تدريس كتابه "المبادئ الأولى" في مناهجها في عام ١٨٦٩م.

وفي عام ١٨٦٩م أصبحت كتب سبنسر تدر عليه دخلاً مكنه من تلبية احتياجاته اليومية ومعيشته. وكان يتلقى الهدايا الثمينة أحيانًا من المعجبين به في بعض الأحيان. إلا أنه كان يردها لأصحابها دائمًا. كما أنه كان يرفض تلبية دعوة علية القوم الذين يطلبون لقاءه.

قال سبنسر عن كتبه إنها تحتوي على أعظم أفكاره التي صفاها وطهرها مما امتزج بها من أفكار سطحية تستخدم في الحديث اليومي. وكان يجلس صامتًا مع من يزوره من الناس ويستمع إلى أحاديثهم.

ومن الغريب أن شهرة سبنسر تراجعت بسرعة مثلما زادت بسرعة، فقد عاش عمرًا طويلاً. وفي أواخر عمره عجز عن مقاومة الحكومة حين أصدرت تشريعات لحماية الضعفاء والفقراء من الناس، فأصبح مكروهًا من الجميع. فترصد له العلماء، وتعقبوا أخطاءه وزلاته. وتناولوها بالنقد الحاد. كما اتحد القسس ضده وقالوا بضرورة معاقبته

عقابًا أبديًا. وكرهه العمال عندما نادى بالاشتراكية. وهكذا زادت آلامه ووحدته وهو كهل.

وقد أدى ذلك إلى أن ازداد سبنسر رقة واعتدالاً في آرائه. وكان يشعر في أواخر حياته أن أعماله وكتبه ضاعت عبثًا. وقد مات في عام ١٩٠٣م.

والآن وبعد مرور تلك السنوات الكثيرة، نعلم أن أعماله لم تذهب سدى. فقد كان ما حدث له من تراجع شهرته وأفول نجمه نتيجة لتوجهات الإنجليز في ذلك الوقت. وفيما بعد رفعه الإنجليز إلى المكان اللائق به كأعظم فيلسوف إنجليزي في عصره.

لقد ربط سبنسر بين الفلسفة والأشياء المحيطة به، وأضاف إليها واقعية جعلت الفلسفة الألمانية تبدو ضعيفة وهزيلة ومجردة. وقد أجمل سبنسر عصره كما لم يتمكن من ذلك رجل قبله منذ عصر "دانتي". وقد ترك قدرًا كبيرًا من العلم المعد ببراعة لا يجاريه فيها أحد. إننا نقف الآن على قمة وصلنا إليها بفضله ومجهوده وأعماله. وسيأتي اليوم الذي سيزيد إنصافنا له فيه وذلك بعد نسيان بعض ما في أعماله من هفوات.

قصة الفلسفة